الفلسفة في كلام الإمام الخميني قدس سره

محمود النمر*

تمهيد:

المذكور في هذه المقالة عبارة عن كلمات للإمام الخميني قدس سره منتقاة من بطون الكتب في مجال الفلسفة وعلاقته بها، جمعناها سعياً للفائدة وهي فيما يلي:

١- موضوع الفلسفة:

«إنَّ موضوع الفلسفة هو مطلق الوجود من الحق تعالى وحتى مراتب الوجود»[١].

٢-دراسة الإمام قدس سره للفلسفة:

يقول الإمام الخميني قدس سره: **«درست الفلسفة لدى المرحوم الحاج أبي الحسن القزويني رحمه الله»**[٢]. ويقول المرحوم السيد أحمد رحمه الله نجل الإمام الراحل قدس سره: **«بدأ الإمام بدراسة الأسفار الأربعة بعد إتمامه لدرس المنظومة مباشرة، لكنَّه وبعد بضعة أيام من الدرس اكتشف أنَّ بإمكانه دراسة الأسفار من دون أستاذ، فراح يتدارسها (يتباحث) مع بعض زملائه»**[٣].

٣-تدريس الإمام قدس سره للفلسفة:

يقول الإمام الخميني قدس سره: **«كنت قبل مجيء المرحوم البروجردي إلى قم مشغولاً بتدريس (المعقول)... واشتغلت بعد مجيئه وبطلب من السادة أمثال المرحوم مطهّري بتدريس البحث الخارج في الفقه وتخلّفت عن العلوم العقلية»**[٤]. وينقل بأنَّه

* طالب في جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله - فرع لبنان، السطح الثاني (مرحلة الإجازة).

١) الخميني، روح الله الموسوي (السيد الإمام): «صحيفة الإمام»، الناشر: مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، ج١٨، ص: ٣٥٦.

٢) صحيفة الإمام: ج١٩، ص ٣٧٠.

٣) العارف الكامل، تحقيق وتأليف: مؤسسة العلوم والمعارف الإسلامية، ترجمة: كمال السيد-أحمد العبيدي، مركز الغدير، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص ١١.

٤) صحيفة الإمام: ج١٩، ص ٣٧٠.

«بدأ الإمام تدريس الفلسفة سنة ١٣٤٧هـ.ق، ولم يكن عمره يتجاوز يومها (٢٧) عاماً، وكان يتحرّى الدقّة في اختيار الكتاب الذي يقوم بتدريسه وكذلك في اختيار الطلبة الذين يحضرون درسه، ولم يكن يغفل عن امتحانهم - شفهياً وتحريرياً- وتهذيب نفوسهم ونضوج خصالهم الأخلاقية»[٥]. وكان قدس سره يرى بأنَّ الفلسفة يجب أن تُدَّرَس بصورة غير رسمية كما سيأتي تحت عنوان «**مواجهة المرجع المسؤول عن الحوزة أمر خطير**». فكان الإمام قدس سره يراعي عدّة أمور في تدريس الفلسفة و منها:

أ- الاهتمام بالعرف في المسائل

كان الإمام يجتنب - في الدروس - الخلط بين العلوم ويقول: (ينبغي أن تكون الدروس الفقهية خاصة بالفقه، والأصولية خاصة بالأصول، والفلسفية خاصة بالفلسفية، دون أن تخلط هذه بتلك)[٦].

ب- الدقّة في استخدام التعابير الفلسفيّة

كتب الإمام قدس سره بخط يده على حاشية تقريرات درسه في الفلسفة التي دوّنها السيد عبد الغني الأردبيلي: «**جيد للغاية ومتكامل، ولكن لم تراع فيه دقة العبارة أحياناً، فعلى سبيل المثال استعملت لفظ (وحدت وكثرت) بدلًا من (وحدة وكثرة)، وهذا غير صحيح في التعبير العربي**»[٧].

ج- يقرن تدريس الفلسفة بتدريس الأخلاق

و«**كان قدس سره يقوم بتدريس الأخلاق - إلى جانب تدريس الفلسفة -، وقد ازداد تدريجياً عدد الحاضرين في دروسه الأخلاقية، ثم أخذ بإلقائها يومين في الأسبوع - يومي الخميس والجمعة - بعد أن كان يلقي درساً واحداً في الأسبوع**»[٨].

د- يعرض تلاميذه في الفلسفة لامتحانات ومراقبة مستمرة

«**وكان قدس سره حريصاً على أن يكون الذين يحضرون دروسه في الفلسفة من الفضلاء الأذكياء وذوي العقائد الراسخة، وكان يعرضهم باستمرار لامتحانات شفهية**

٥) الرجائي، غلام علي: «قبسات من سيرة الإمام الخميني+ (ميدان التعليم الحوزوي والمرجعية)»، ترجمة:عرفان محمود،الدار الإسلامية،بيروت- لبنان،الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، ص١٢٦.

٦) م. ن. ص١٠٨.

٧) صحيفة الإمام: ج١، ص ٥٤.

٨) الرجائي، م. س. ص١٢٦.

وتحريريّة ويراقب أوضاعهم، فإذا وجد أحدهم غير مستعدّ لتعلّم الفلسفة منعه من حضور دروسه فيها، وقد حدث مراراً أنه كان يمتنع عن التدريس ويترك مجلس درسه بسبب مشاهدته لحضور أشخاص غير مؤهّلين لتعلّم الفلسفة قد يؤدّي حضورهم تدريسها إلى الانحراف والضلال»[٩].

هـ- أتعمّد التدريس بهذه الطريقة لكي لا يحضر أمثال هذا

«كان الإمام يميِّز بدقة - وبفراسته الخاصة - الذين يفهمون ما يقوله أثناء الدرس عن الذين يعجزون عن إدراك المطالب العلمية الدقيقة، ينقل أحد الأصدقاء: راجعني أحد الطلبة الذين كانوا يحضرون دروس الإمام في شرح (المنظومة) وطلب مني أن أطلب من الإمام أن يتأنّى في تطبيق المباحث العلمية وقد نقلت للأستاذ (الإمام) هذا المطلب دون أن أخبره بصاحبه، فقال لي فوراً (أليس الذي طلب هذا هو فلان؟)، قلت: بلى إنَّ هو، فقال: (إنني أقوم التدريس بهذه الطريقة لكي لا يشارك في الدرس أمثاله)»[١٠].

٤-الفلسفة طريق للوصول إلى الهدف

أ- العلوم سيف ذو حَدَّين

ففي وصيّته إلى فاطمة الطباطبائي، زوجة ابنة السيد أحمد رحمه الله يقول الإمام قدس سره: «بنيّتي! إن الانشغال بالعلوم وحتى العرفان والتوحيد إن كان بهدف جمع المصطلحات - وهو كذلك - وبهدف هذه العلوم نفسها لن توصل السالك إلى هدفه بل تبعده عن ذاك. العلم هو الحجاب الأكبر. وإذا كان الهدف طلب الحق وحبّه وهو نادر جداً، فإنه سيكون سراجاً للطريق ونوراً للهداية (العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء) وإن بلوغ جزء منه يتطلب التهذيب والتطهير والتزكية»[١١].

ب- يجب أن يكون الدافع إلهياً

ويقول الإمام الخميني قدس سره للسيدة فاطمة الطباطبائي (زوجة ابنه أحمد): «سألتيني ليلة أمس عن الكتب العرفانية. يا بنيّتي (اجتهدي في إزالة الحجب

٩) م. ن. ص١٢٦.
١٠) م. ن. ص١٢٧.
١١) صحيفة الإمام، ج١٨، ص:٣٥٢.

وليس في جمع الكتب). فلو فرضنا أنك نقلت الكتب العرفانية والفلسفية من السوق إلى المنزل ومن مكان إلى آخر أو حشرت نفسك في مستودع الألفاظ والمصطلحات وعرضت في المجالس والمحافل ما حفظته وبهرت الحضور بمعلوماتك وزدت أعباءك بالخديعة الشيطانية والنفس الأمارة التي هي أخبث من الشيطان وأصبحت زينة المجالس بألاعيب إبليس، فجاءك غرور العلم والعرفان - وهو قادم - فهل زدت على حجبك بهذه الأعباء الثقيلة أم أنّك نقصتها، لقد أنزل الله عزَّ وجلّ لتنبيه العلماء الآية الشريفة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ حتّى يعلموا أن جمع العلوم - حتّى علوم الشرائع والتوحيد - لن تزيل الحجب بل تزيدها وتجرّه من الحجب الصغار إلى الحجب الكبار.

لا أقول لك دعي العلم والعرفان والفلسفة وعيشي جاهلة؛ لأن ذلك انحراف. بل أقول حاولي واجتهدي أن يكون الدافع إلهياً ولأجل الحبيب... الناطق بالفارسية الذي لا يعلم العربية فيقرأ القرآن ويلتذّ بقراءته لأنّه منه، فهو... أفضل من الفيلسوف والعارف اللذين ينظران إلى الأمور العقلية والذوقية ويغفلون عن المحبوب وينظرون إليه نظرتهم للكتب الفلسفية والعرفانية وينشغلون بمحتواه دون قائله»[١٢].

ج- الفلسفة الكلية:

«لا تجعل نصب عينك صورة النسك وقشورها، ولا اعتدال الخُلق وجُودتها، ولا الفلسفة الكلية والمفاهيم المبهمة، ولا تنسيق كلمات أرباب التصوّف والعرفان القشرية وتنظيمها، وإرعاد أهل الخرقة وإبراقها، فإنّ كل ذلك حجاب في حجاب وظلمات بعضها فوق بعض، وصرف الهمّ إليها اختزام وهلاك، وذلك خسران مبين وحرمان أبدي وظلمات لا نهاية لها»[١٣].

د- عدم تناول الفلسفة خيانة للعقل

والفلاسفة يثبتون بالبراهين العقلية حضور الحق تعالى في كلّ مكان، ولكن ما لم يصل إلى القلب ما أثبته العقل بالبرهان وما لم يؤمن به القلب، فإنّه لايؤدي أدب الحضور، وأولئك الذين أوصلوا إلى القلب حضور الحقّ تعالى وآمنوا به فإنّهم يؤدون

١٢). م. ن. ج١٨، ص: ٣٥٥-٣٥٦.
١٣) م. ن. ج١، ص٣٧.

أدب الحضور، حتّى وإنّ لم تكن لهم علاقة بالبرهان، ويتجنّبون ما يتنافى مع حضور المولى. وعلى هذا فإنّ العلوم الرسمية هي حجب بحد ذاتها وإن تمثلت في الفلسفة وعلم التوحيد، وكلما زادت أصبح الحجاب أكثر سمكاً.

وكما نعلم ونرى فإنّ لسان دعوة الأنبياء عليهم السلام - والأولياء الخلّص سلام الله عليهم - ليس لسان الفلسفة والبرهان الشائع، بل لسان الذين هم على صلة بأرواح الناس وقلوبهم ويوصلون النتائج إلى قلوب عباد الله ويهدونهم من داخل الروح والقلب. وإن شئت فقل إنّ الفلاسفة وأهل البرهان يزيدون من الحجب والأنبياء عليهم السلام وأصحاب القلوب يسعون من أجل رفع الحجاب، ولهذا فإنّ المتخرّجين من مدرستهم وتلامذتهم، هم أصحاب البرهان والقيل والقال ولا يمتّون بصلة إلى القلب والروح.

إنَّ ما قلته لا يعني أن لا تتناول الفلسفة والعلوم البرهانيّة والعقليّة وتعرض عن العلوم الاستدلاليّة، فهذه خيانة للعقل والاستدلال، بل أعني أنّ الفلسفة والاستدلال طريق للوصول إلى الهدف ولكنهما ليسا هدفا بحد ذاتهما والدنيا مزرعة الآخرة، والعلوم الرسمية هي مزرعة الوصول إلى الهدف، كما أنّ العبادات هي أيضاً المعبر إلى الله - جلَّ وعلا -، فالصلاة أسمى العبادات ومعراج المؤمن والجميع منه وإليه. وإن شئت قل: **«إنّ جميع المعروفات هي درجات من سلّم الوصول إليه - جلَّ وعلا - وجميع المنكرات هي المانعة من طريق الوصول والعالم كله متحير فيه وفراشة جماله الجميل»**[١٤].

هـ- كتب الفلاسفة تطلع الإنسان على ما وراء الطبيعة

«على كلّ حال فإنّ للكتب الفلسفيّة خاصّة لكتب فلاسفة الإسلام ولكتب أهل العرفان والطريقة، تأثيراتها كلٌّ على حدة. فكتب الفريق الأوّل تطلع الإنسان ولو بشكل بعيد على ما وراء الطبيعة، وكتب الفريق الثاني... تستطيع أن تعدّ القلوب للوصول إلى المحبوب، والأفضل من ذلك كلّه مناجاة أئمة المسلمين وأدعيتهم التي تأخذ الإنسان إلى الهدف ولا تدلّه على الطريق فحسب وهي تأخذ بأيدي الإنسان الذي يبحث عن الحقّ وتأخذه إليه وواأسفا إذ إنّنا بعيدون عن ذلك مئات الأميال بل مهجورون عنه»[١٥].

١٤) م. ن. ج١٦، ص: ١٦٧.
١٥) م. ن. ج١٨، ص: ٣٥٧.

و- حرمتني «الأسفار الأربعة» من نيل وصال المعشوق

«لقد سبرت أغوار هذه المصطلحات والاعتبارات وأقدمت على جمع الكتب بدل رفع الحجب، فكأنّ الكون خلا إلا من قبضة من الكتب التافهة المسماة بالعلوم الانسانية والمعارف الالهية والحقائق الفلسفية التي صدت الطالب المفطور بفطرة الله عن بلوغ مبتغاه، وأغرقته في غياهب الحجاب الأكبر.

حرمتني «الأسفار الأربعة» من نيل وصال المعشوق، ومازادتني «الفتوحات» فتحاً ولا «فصوص الحكم» حكمة، فما بال غير هذه الكتب؟»[١٦].

ز- ثمار العلم: الاستفادة منه.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «يقول سعدي: الذي يتعلّم ثمّ لا يستفيد من علمه فإنّ ما تعلّمه لا يحمل أي تربية إنسانيّة. وعندها لا يهمّ إن كانت هذه العلوم محمولة على ظهر صاحبها أو موجودة في عقله، فهي ليست أكثر من تعاليم وكتب لا تحمل أي تربية إسلاميّة، وهذا يؤدّي إلى إلحاق الضرر بالمجتمع سواء كان هذا الشخص منا أو منكم، وسواء كانت هذه العلوم علوماً إسلاميّة وفلسفيّة من الدرجة الأولى، أو من العلوم التجريبيّة والعلوم المتعلّقة بالطبيعة. فإذا لم يكن التعليم مقروناً بالتربية وإذا لم تكن التربية إنسانيّة، فإنَّ الإنسان كالحيوان يحمل أكداساً من المعلومات، أو بعبارة أخرى، حيوان مليء بالمعلومات وليس إنساناً»[١٧].

٥- الفلسفة بُعدٌ من أبعاد الإسلام:

أ- الإسلام يولي اهتماماً بجميع أبعاد الإنسان

«إنَّ للإسلام منهجاً ومسلكاً لهذا الانسان الذي له مراتب من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة، ومن ما وراء الطبيعة إلى الالوهيّة. إنَّ الإسلام يريد أن يربي إنساناً جامعاً، أي يربيه بالصورة التي هو عليها: له بعد طبيعي فينمّي فيه البعد الطبيعي. وله بعد برزخي فينمّي فيه البعد البرزخي. وله بعد روحي فينمّي فيه البعد الروحي. وله بعد عقلي فينمّي فيه البعد العقلي. وله بعد إلهي فينمّي فيه البعد الإلهي.. إنَّ جميع الأبعاد التي يمتلكها الانسان هي بصورة ناقصة ولم تصل إلى درجة الكمال. وقد جاءت الأديان لإنضاج هذه الثمرة غير الناضجة، وإكمال هذه الثمرة الناقصة»[١٨].

١٦) م. ن. ج٢٠، ص١٣٧.
١٧) م. ن. ج٩، ص١٠.
١٨) م. ن. ج٤، ص:١٥.

ب- مصيبة عدم التعرّف على الإسلام بمختلف أبعاده

«إنَّ الإسلام كان قد ابتلي منذ البداية بالمحنة وهي عدم إدراكهم للإسلام... لم يتمّ التعرّف على الإسلام بمختلف أبعاده. كلّ طائفة كانت تدرس الإسلام من وجهة نظر فهمها، وترجع كلّ الآيات وأخبار النبيﷺ والأئمةعليهم السلام إلى وجهة نظرها، وتعيد جميع الأوراق إلى تلك الورقة التي أدركتها. لذلك لا يوجد فيها خبر عن البعد الدنيوي والحكومي للإسلام. كلّ تلك المواضيع فلسفيّة وعرفانيّة. أمّا ما هي وظيفة الناس في هذا اليوم الذي يعيشون فيه، وكيف تكون الحكومة الإسلاميّة، وكيف يجب أن يتعامل الناس مع الطبيعة؟ فلا يوجد شيء عن ذلك في كلامهم. إنّهم درسوا فقط المواضيع التي ترتبط بما وراء الطبيعة والمسائل العرفانيّة والفلسفيّة، إلى أن وصل ذلك إلى هذه الطبقة المتأخرة. فعمل هؤلاء على العكس من أولئك، أي أنّ هذه الطبقة تركت الابعاد المعنويّة والفلسفيّة والعرفانيّة للإسلام جانباً بشكل عام، ونظرت إلى الظاهر فقط. أي أنّهم تصوروا أنّ الإسلام رسالة مادية، مثلما تصوّر أولئك أنّ الإسلام رسالة معنويّة وكأنّه مفصول عن المادّة أساساً. حتّى أنّهم أوّلوا الآيات المتعلّقة بقتال المشركين، بالقتال مع النفس وأمثال ذلك.

وفي مقابل أولئك، وفي هذا الوقت الذي وصلت إلينا علوم الغرب ودعاياته، نجد أن معرفة هؤلاء للإسلام - رغم كونهم مسلمين - تقتصر على البعد المادي للإسلام فقط!. وفيما كان أولئك يدعون إلى الباطن ويغفلون عن الظاهر والطبيعة، نرى هؤلاء يدعون إلى الماديّات ويغفلون عن المعنويّات، وكلاهما على خطأ. فالإسلام غير محدود في تلك المعنويات التي يقولها أولئك. ولا محدّد في الماديات التي يقول بها هؤلاء»[١٩].

٦- الفلاسفة يدركون بعداً من أبعاد القرآن الكريم

أ- **«إنَّ لغة القرآن، التي هي من البركات الكبرى لبعثة رسول الله، هي لغة السهل الممتنع.. ربما يتصوّر كثيرون أنّ بوسعهم أن يفهموا القرآن كونه يبدو في الوهلة الأولى سهلًا. إنَّ الكثير من أرباب المعرفة والفلاسفة يتصوّرون أنّهم فهموا القرآن لمجرّد أنّهم أدركوا أحد أبعاده. بيد أنّ القرآن ذو أبعاد لم تتّضح لأحد من الكائنات - الملك والملكوت - قبل أن يبعث الرسول الأكرمﷺ وقبل أن يتنزل القرآن من مقام الغيب ويتجلّى بمظهره النزولي على قلب رسول الله.... فالآيات التي**

١٩) م. ن. ج٤،ص١٦.

نراها في القرآن الكريم، والتي هي من بركات البعثة أيضاً، وفي الوقت الذي يتصوّر الإنسان بأنه أدرك فحواها، لم يتمّ اكتشافها حتى الآن: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ... وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهذه آيات ليس بوسع المفسر أن يفهمها ولا الفيلسوف أو العارف. وكل من يدعي أنه أدرك معناها فهو غارق في الجهل... إنّما يعرف القرآن من خوطب به»[٢٠].

ب- ما حقّقته الفلسفة اليونانية يعتبر مهماً في مجاله

«لو لم يكن القرآن لكان باب معرفة الله مغلقاً إلى الأبد. وما حقّقته الفلسفة اليونانية يعتبر مهماً في مجاله، لأنّها تبرهن على وجود الله تبارك وتعالى بالاستدلال لا المعرفة، والمعرفة غير إثبات الوجود. وقد سعى القرآن للبرهنة عبر الطرق المتعارف عليها»[٢١].

ج- فلسفة أرسطو كانت أفضل الفلسفات قبل الإسلام

«عندما تنظرون إلى فلسفة أرسطو التي كانت أفضل الفلسفات قبل الإسلام تجدونها مختلفة عن الفلسفة التي ظهرت بعد الإسلام وإنَّ الفرق بينهما كالفرق بين الثرى والثريا رغم كونها ذات أهميّة كبيرة، ورغم أنَّ الشيخ الرئيس قال عن منطق أرسطو: لم يستطع أحد أن يشكل على منطق أرسطو لحد الآن أو يضيف إليه.. في ذات الوقت الذي ترى أن الفلسفة الإسلاميّة تختلف عن الفلسفة ما قبل الإسلام اختلافاً كبيراً»[٢٢].

د - لغة القرآن لغة أخرى

«ولكن لغة القرآن لغة أخرى. إنّها لغة يدّعي كل عالم ومفسر معرفتها ولكن الأمر ليس كذلك، إن القرآن الكريم من الكتب التي لا مثيل لمعارفه، كما أن تصور كثير من معارفه أصعب من تصديقها. فقد يستطيع الإنسان إثبات موضوع بالبراهين الفلسفية والنظرة العرفانية ولكنّه يعجز عن تصوره. إنَّ كثيراً من

٢٠) م. ن. ج١٧، ص:٣٥٢.
٢١) م. ن. ج١٧ ٣٥٣،ص: ٣٥١.
٢٢) م. ن. ج١٧ ٣٥٣،ص:٣٥١.

الأمور لم يتمكّن من تصوّرها إلّا المخاطب وأقرباؤه من خلال التعليم حيث كانوا يدركون هذه الأمور. فمن جملة هذه الأمور: تصوّر ربط الحادث بالقديم الذي عبّر عنه القرآن بطرق مختلفة، وكذلك موضوع كيفيّة معية الحقّ للخلق أهي كما قال البعض معية قيوميّة؟ وهي ممّا تعتبر من المعضلات عند قائليها، وكذلك موضوع ظهور الحقّ في الخلق وحضور الخلق عند الحق وأقربيته جلّ وعلا من حبل الوريد إلى الخلق وكذلك مضمون ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقوله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وقوله ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وأمثال ذلك تعتبر من هذه الأمور، وإن الوصول إليها يتطلب جهاداً مشفوعاً بالتهذيب»[٢٣].

٧- دفاع الإمام الخميني قدس سره عن الفلسفة والفلاسفة

«كان يوجد في حوزة قم العلميّة المقدّسة أشخاص ساذجون فكريّاً وذوو نوايا خيرّة لكنهم لم يكونوا يحسنون الظن أبداً بالفلسفة والحكمة الإلهيّة والعرفان، وقد أوجدت معارضتهم لها أجواء مضادة للفلسفة والعلوم العقليّة، كانت من القوّة إلى درجة تكفي لاغتيال شخصيّة كل من يقوم بتدريس الفلسفة، فانبرى الإمام بكل شجاعة لمحاربة هذه الأجواء ودحض هذه الأفكار، ودافع عن الملا صدرا الذي حكموا بكفره!! فقد بلغ هجومهم ضد آرائه درجة كان الذين يدرسون كتبه يضطرون إلى التخفي في ذلك واختيار «السراديب» والأماكن البعيدة عن الأنظار لدراسة كتب هذا العالم الجليل. أمّا الإمام فقد بلغ من دفاعه عنه أنَّه كان يقول عنه: (الملا صدرا، ما الملا صدرا؟! وما أدراك ما الملا صدرا؟!)؛ وكان يؤيّد أفكاره التي عارضها أولئك المقدسون طويلاً ومنها قوله في المعاد الجسماني فكان يقول على اعتراضات المقدسين على هذا القول: (إنَّ عقيدة المعاد التي يقول بها الملا صدرا هي العقيدة نفسها التي تؤمن بها المرأة العجوز). وأعتقد أنَّ الثورة التي فجرها الإمام في دفاعه عن هؤلاء الحجج الإلهيّة أعظم من هذه الثورة الاسلاميّة، فهو بتصدّيه الشجاع للخواصّ من ذوي الظاهر الصالح؛ والذين تصعب للغاية مواجهتهم عادةً، وقد أنهى مؤامرة استمرّت ثلاثة قرون ضد الملا صدرا ونظرائه»[٢٤].

٢٣) م. ن. ج١٨، ص: ٣٥٤.

٢٤) الرجائي، م. ن. ص١٨-١٩. (آية الله الشيخ المحمدي الجيلاني، مقابلة خاصة محفوظة في أرشيف مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره).

أ- يقول الإمام قدس سره في خطاب له:

«عقلك لا يستوعب ما هي (الفلسفة) وما فوق الفلسفة، لماذا تتجاسر على أصحابها؟ فأنت الذي لا تستطيع أن تستوعب. فإنَّ من لا يستطيع فهم ما تقوله تلك الطائفة أو الفئة، وما تتوخّاه لا يحقّ لهُ الاعتراض عليها، فقد يكون فكره هو محدوداً!»[٢٥].

ب- الإشكال الذي يؤخذ على الحوزات

ويقول الإمام الخميني قدس سره: **«كانت الحوزات قديماً محصورةً داخل جدرانٍ أربعة لا يستطيع أحد ان يخرج منها، والدعاية السيئة نافذة في أجوائها لدرجة يتعرض فيها كل من يريد أن يقول كلمته أو يفكر بتشكيل تنظيم، ما إلى الطعن والنقد. فقد كانت المقولة السائدة هي (النظم في عدم النظم). علينا أن نأسف جميعاً لأن انتصار الثورة جاء متأخراً، فلو أنها كانت انتصرت قبل ثلاثين عاماً لكان وضع الحوزات الآن غير هذا الوضع. طبعاً من المؤكد أن الفقه الاسلامي والفقه الجعفري مدينٌ في بقاءه لهذه الحوزات ولجهود رجالاتها، ولكنهم في النهاية حصروا أنفسهم في نطاق الفقه فقط، وأهملوا المسائل الأخرى، ومع هذا فقد كانوا بارعين في هذا المجال. الإشكال الذي يؤخذ على الحوزات هو أنها جندّت كل وقتها للمسائل الفقهية العبادية، ولم تتحرك أبداً في المجالات الأخرى. ناهيك عن أن العلماء الكبار ما كانوا يصعدون المنبر ليمارسوا التبليغ الذي هو اساس عملهم. الفلسفة أيضاً لم يكن وضعها كما هو الآن. فقد كان السيد شاه آبادي رحمه الله يقول: «عندما توفي المرحوم آقا ميرزا علي اكبر يزدي وهو من الفلاسفة الكبار والعلماء الصادقين والزاهدين. صعد أحدهم المنبر للتعريف به ومن ضمن ما قاله: لقد رأيته بنفسي يقرأ القران. مثل هذا الوضع كان سائداً في الحوزات العلمية، والعلوم الأخرى كالرياضيات مثلاً إمّا لم تكن أو كانت بشكلٍ بسيط، بل إن شخصاً لم يكن يفكر أصلاً بما هو موجود وما هو غير موجود. فلم تكن هناك حركة في الحوزة»[٢٦].**

ج- الواقع المؤلم

ويقول الإمام الخميني قدس سره في رسالة كتبها لزوجة ابنه السيد أحمد رحمه الله: **«يقال بأن صدر المتألهين شاهد شخصاً في جوار مرقد السيدة المعصومة- سلام الله عليها- يلعنه، فسأله لم تلعن صدر المتألهين؟ فأجابه قائلاً: إنه يؤمن بوحدة واجب الوجود فقال له: العنه**

٢٥) صحيفة الإمام ج٣ ٢١٨.
٢٦) م. ن. ج١٨، ص٦٦.

إذاً. إن ذلك حتى لوكان قصة فإنها تدل على الواقع المؤلم الذي رأيت منه قصصاً مؤلمة أو سمعتها وكانت موجودة في زماننا. إنني لا أريد تطهير الأدعياء، إذ أن (رُبّ صوف يلبسه الصوفي يستحق النار) «١» بل أريدك ألا تنكري أصل المعنى والمعنويات تلك المعنويات التي ذكرها الكتاب والسنة ولكن مخالفيها تجاهلوها أو فسروها تفسيراً عامياً»[٢٧].

د- وما أدراك ما الملا صدرا

«أخبروا الإمام - في أيام تدريسه الأصول عصر كل يوم في مسجد السلماسي في قم - أن بعض الأشخاص الذين يحضرون الدرس قد أهانوا الملا صدرا،الأمر الذي أغضبه كثيرا فقال - وهو يعظهم ناهياً لهم عن التجرأ على عظماء الدين: (وما أدراك ما ملا صدرا؟ لقد حلّ المعضلات الفلسفية التي عجز أبو علي ابن سينا عن حلها! فلماذا لا نراقب ألسنتنا وما نتفوه به؟!)»[٢٨].

هـ- غضبه بسبب الإساءة لمؤلف الأسفار

ويقول آية الله الشيخ صادق الخلخالي: «لم أرَ لدى الآخرين مارأيته لدى الإمام من استنباطات عميقة وإدراك دقيق للمعارف الإلهية وللفلسفة وآراء محي الدين ابن عربي، وأتذكر أنَّه وكما يبدو قد سمع - عند بداية التدريس في أيام الدراسة في منتصف شهر (شهريور) بعد عودته من السفر - بأنّ أحد السادة - وقد توفي رحمه الله - قد أساء القول في مؤلف كتاب الأسفار، فغضب إلى درجة،قال معها: (الأسفار وما أدراك ما الأسفار ؟! هل تعرف ما يضمه هذا الكتاب؟ وهل تعرف من هو مؤلفه؟!). لم يكن الإمام يتطرق إلى مثل القضايا عادة، ولكن شدة الأذى الذي أصابه اضطرته إلى مثل هذا التعامل»[٢٩].

٢٧) م. ن. ج١٨، ص: ٣٥٨.
٢٨) الرجائي، م. س. ص١٨.
٢٩) م. ن.ص١٨.

و- مواجهة المرجع المسؤول عن الحوزة أمر خطير

ويقول سماحة الشيخ علي الدواني: سمعنا في سنة ١٣٣٨ هـ.ش،(١٩٥٧م) أنَّ بعضهم قال للمرحوم آية الله البروجردي: إنَّ المرحوم العلامة الطباطبائي قدس سره يوجِّه بتدريسه الموسَع والعام للحكمة والفلسفة ضربة للحوزة العلمية؛ لأنَّ الحوزة تقوم على أساس تدريس ونشر العلوم الدينية من الفقه والأصول والحديث. وكان للعلامة الطباطبائي رحمه الله يومذاك دروسٌ أخرى في التفسير كان يلقيها في مدرسة الحجتيّة وأحياناً في مسجد السلماسي، وهذه الدروس شكّلت أساس تأليفه لتفسيره الكبير (الميزان)، وكان يتابع دروسه في التفسير إلى جانب طبع ونشر ما كان يتمّ تأليفه من أجزائه، وكنت أنا أيضاً أحضر – مثل الكثيرين – دروسه في الحكمة وكذلك في التفسير في الوقت نفسه.

وعندما وصلت حملة الاتّهامات ضدّ المرحوم العلامة الطباطبائي إلى منعطفات خطيرة قرّرنا – أنا وعدد من السادة – أن نقوم بتحرك للدفاع عن العلامة الطباطبائي ومنع وقوع الخطر المحدق به، إذ كنّا نخشى أن يقول آية الله البروجردي شيئاً يتذرّع به المغرضون ويروّجوه لتشديد الضغط على العلامة الطباطبائي، لكنّنا لم نكن نعرف ما الذي يمكننا القيام به، ومن أين نبدأ التحرّك، ثمّ قرّرنا في النهاية أن نذهب للإمام ونطلب منه حلاً للمشكلة، فقد كان فقيهاً مصلحاً حكيماً وأستاذاً كبيراً للفلسفة، ورغم أنّنا سمعنا أنَّه مريض ومصاب بزكام حاد لكنّنا قرّرنا الذهاب إليه، لأنَّه لم يكن أمامنا خيار آخر، والأوضاع كانت حساسة للغاية.

ذهبنا إليه – برفقة اثنين أو ثلاثة من فضلاء الحوزة – في احدى تلك الليالي، ولما دخلنا عليه وجدناه –كما هو المعتاد – منهمكاً بكتابة الدروس التي كان يلقيها في تلك الأيام، وكان كعادته يكتبها بقلم القصب والدواة القديمة بخطه الجميل المعروف، سلّمنا عليه وجلسنا، ولما أتمّ كتابة السطر الأخير على الورقة الصفراء المصقولة –على طريقة القدماء – وضع القلم في محله مع الدواة، ثم سألنا عن أحوالنا وانتظر أن نخبره عن سبب زيارتنا له، فقال أحدنا: أنَّ سماحتكم كنتم من أساتذة الفلسفة في الحوزة العلمية.وتدريس الفلسفة اليوم أكثر ضرورة ولزوماً من أي وقت مضى بسبب انتشار التيارات المادية وترويج الأفكار الإلحادية، والسيد الطباطبائي هو اليوم طليعة الأساتذة الذين يدرّسون الفلسفة في الحوزة، وقد سمعنا بافتعال أجواء مضادّة له عند آية الله

البروجردي ومن المحتمل أن يتّخذ موقفاً شديداً ضدّه يؤدّي إلى الإضرار به – وملخّص الأمر أنّنا طلبنا منه أن يلتقي – بأي صورة – آية الله البروجردي عسى أن ينبهه إلى أغراض بعض حاشيته أو السذّج، لكن الإمام قال: «**لا يمكن التحدث مع السيد البروجردي بشيء فيما يربط بهذا الموضوع**»، ولما ألحّ أحد الأصدقاء في هذا الطلب، قال الإمام بانفعال: «**وما الذي أستطيع القيام به؟ يوجد في منزل السيد البروجردي أشخاص يمنعون القيام بأي عمل يخدم الإسلام...**» ثمَّ أضاف بعد صمت استمر لحظات: «**أنَّ السيد البروجردي نفسه من أهل العلوم العقلية،فهو شخصياً ليس ضد الفلسفة.عندما كان في بروجرد كان يدرّس الفلسفة الى جانب تدريس البحث الخارج في الفقه والأصول، ولما وصل الخبر وقاموا بما من شأنه إجباره على التوقّف عن تدريس الفلسفة لكي لا ينتقل ذلك إلى الحوزة العلميّة في قم ويصل الأمر إلى منعطف حساس، فترك السيد تدريس الفلسفة خشية من أجواء الضجيج التي يثيرها هؤلاء المقدسون**».

ثمَّ قال الإمام أنَّ السيد الطباطبائي رجل جليل، ويجب حفظ حرمته مع ما هو عليه من مقام علمي رفيع، لكنني سمعت أنَّ الكثيرين يحضرون دروسه في الفلسفة.

قلت: هذا صحيح، العدد كثير، قال: (كم هو تقريباً؟). قلت: انه يدَّرِس صباحاً كتاب الأسفار في مسجد السلماسي وأنا أحضر درسه هذا، وعدد الذين يحضرونه ما بين (٢٠٠-٣٠٠) طالب. فقال: «**سمعت أنَّ الشيخ حسين علي يقوم بتدريس الحكمة في مسجد الإمام العسكري عليه السلام، قلت: أجل، انه يدَّرِس شرح المنظومة وأنا أحضر درسه أيضاً، وله حدود (١٥٠) تلميذاً يدرسون الفلسفة عنده**».

فالتفت الإمام إلى أحد الفضلاء الحاضرين – وكان من تلامذة الإمام، وهو اليوم من أساتذة البحث الخارج في حوزة قم، وأستاذ للفلسفة – وقال له: «**سمعت أنَّك أيضاً تقوم بتدريس الفلسفة!**» أجاب هذا العالم الفاضل: صحيح ما سمعتم فسأله: «**كم عدد الذين يحضرون درسك؟ أجاب: حدود خمسين شخصاً. وفي هذه اللحظة قال الإمام: «حسناً لاحظوا، متى شهدت الحوزات العلمية الشيعيّة هذا العدد من الدارسين للفلسفة؟ هل أنَّ هؤلاء جميعاً يفهمون الفلسفة؟!**».

ثمَّ قال: «كانت الفلسفة طوال تأريخها بضاعة غير رسمية، ويجب أن تدرس بهذه الصورة غير الرسمية خاصّة في الحوزات العلميّة، لا أن تقوموا بتدريسها بهذا

النطاق الواسع ولكل شخص وتسمحوا للجميع بحضور دروسها، فهل إنَّ جميع هؤلاء أهل لدراستها؟! إنَّ الذين يمتلكون الاستعداد لدراسة الفلسفة دون أن ينحرفوا قليلون».

ثمَّ سكت قليلاً، وقال: «عندما كنت أقوم بتدريس الحكمة في صحن حرم السيدة المعصومة سلام الله عليها، اخترت لذلك غرفة للدرس لا تتسع لأكثر من حدود (١٧) شخصاً وقد تعمدت اختيارها لكي لا يحضر الدرس عدد أكبر من هذا العدد، كما كنت أطلب من الذين يحضرون الدرس أن يكتبوا ما ألقيه ويأتوني بما كتبوا رغم أنهم كانوا من الخواص والمعروفين، وكنت أقرأ ما يكتبونه فمن وجدته يفهم المباحث سمحت له بمواصلة الحضور وإلا قلت لهم لا ينبغي لكم دراسة الفلسفة لأنكم لا تقدرون على استيعاب مباحثها، الأمر الذي يؤدي إلى إيقاعكم وإيقاعي في الزحمات! لأنكم سوف تقولون: درسنا الفلسفة عند فلان».

ثمَّ قال: «لو كنت في مكان السيد البروجردي قدس سره رئيساً ومسؤولاً عن الحوزة لشعرت بالمسؤولية تجاه تدريس الفلسفة بهذا الاتساع وبهذه الصورة العلنية بالكامل، إنَّ وجود الحوزة هو من أجل دراسة العلوم الدينية من الفقه والأصول والحديث والتفسير، وإلى جانب ذلك يمكن أيضاً لعدد محدود من الطلبة المستعدين دراسة العلوم العقلية خاصة في هذه الأيام مع حفظ الشروط اللازمة ورعاية أوضاع الحوزة ومسؤولية الفقيه المرجع عنها، وذلك لكي تكون دراسة العلوم العقلية مؤيدة لعلومهم الدينية ولكي يتسلحوا بها في مواجهة الأعداء، ولكن لا ينبغي أن تكون دراستها على هذا النطاق الواسع وبهذه الصورة العلنية ومع إثارة ضجيج طبع ونشر كتب الفلسفة وفي الوسط الحوزوي أيضاً!!»[٣٠].

ز- تقدير جهود العلماء

«غير أنّ هذا المقدار الذي لدينا منه عن الماضي وعن الزمان الأوّل وعصور الإسلام الأولى حتى الآن، وإن كان إجمالياً، جعلنا نرى هذا الإسلام بجميع أبعاده، وإنما حُفظَ بكلّ أبعاده بجهود العلماء، أي: أنَّ معارفه حفظها العلماء، وفلسفته حفظها العلماء أيضاً، وكذلك اخلاقه حفظها العلماء، وفقهه حفظه العلماء أيضاً، وأحكامه السياسية حفظها العلماء. كل هذه حُفِظتْ بالجهود الشاقّة للعلماء»[٣١].

٣٠) م. ن. ص٤٩-٥٤.
٣١) صحيفة الإمام ج٣ ٢٢٣.

ح- ماذا يبقى لكم في الأصول؟!

زارنا الإمام يوماً في منزلنا بمعيّة أحد علماء تبريز الكبار... وقد جاءت هذه الزيارة أيام الشتاء وكنا نضع في المنزل جهاز التدفئة (الكرسي)، وكانت توجد عليه حاشية المرحوم الكمباني في الأصول، ورغم أنَّ هذا العالم كان من تلامذة المرحم الآخوند إلا أنَّه كان يقول بلزوم تنقية البحوث الأصولية من المباحث الفلسفية،لذلك فإنَّه عندما رأى حاشية الشيخ الكمباني قال بلهجة معترضة: أي كتاب هذا؟! لقد خلطوا الفلسفة بالأصول، فأجابه الإمام: (لو عزلتم هذه البحوث من الأصول فماذا يبقى لكم فيها؟!)[٣٢].

٨- نداء:

«أذكّر الزائرين الكرام بالأنس بالقرآن الكريم...فليستفد منه أهل المعرفة والتحقيق بمقدار علمهم وقابليتهم في مجالاته المختلفة ويعلموه للآخرين، وليمحص أهل الفلسفة والبرهان الرموز الخاصة بهذا الكتاب الالهي ويكشفوا براهين الفلسفة الالهية ويضعوها في متناول أيدي أهلها.

... وأخيراً فليشمّر العلماء الأعلام عن سواعد الجد ويمسكوا بأقلامهم ويتناولوا بعداً من الأبعاد الإلهيّة لهذا الكتاب المقدس ويحققوا آمال عشاق القرآن، وليقضوا أوقاتهم في الأبعاد السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والثقافيّة والحربيّة والسلمية للقرآن ليتبيّن أنّ هذا الكتاب منشأ لكل شيء، بدءاً بالعرفان والفسلفة وانتهاءاً بالأدب والسياسة، لكي لا يقول الجهلة: ليس العرفان والفلسفة إلّا من نسج الخيال، وترويض النفس والسير والسلوك من عمل الدراويش والزهاد البارعين، أو ما للاسلام والسياسة والحكومة وإدارة الدولة؟ فإنّه عمل السلاطين ورؤساء الجمهوريّات وأهل الدنيا. أو إنّ الاسلام دين الصلح والسلام وهو بريء من محاربة الظالمين أيضاً. ويفعلون بالقرآن ما فعلته الكنيسة الجاهلة والساسة المتلاعبون بالدين المسيحي. ألّا أيتها الحوزات العلميّة والجامعات إنهضوا وخلصوا القرآن من شرّ الجهال المتنسكين والعلماء المتهتكين الذين يغيرون على القرآن والاسلام عن عمد وقصد. وأنا أقول جاداً ولست مجاملاً أنّني آسف على انقضاء عمري في طريق الجهالة والاشتباه»[٣٣].

٣٢) قبسات من سيرة الإمام الخميني، ص١٦٣.
٣٣) صحيفة الإمام ج٢٠،ص ٨٢.

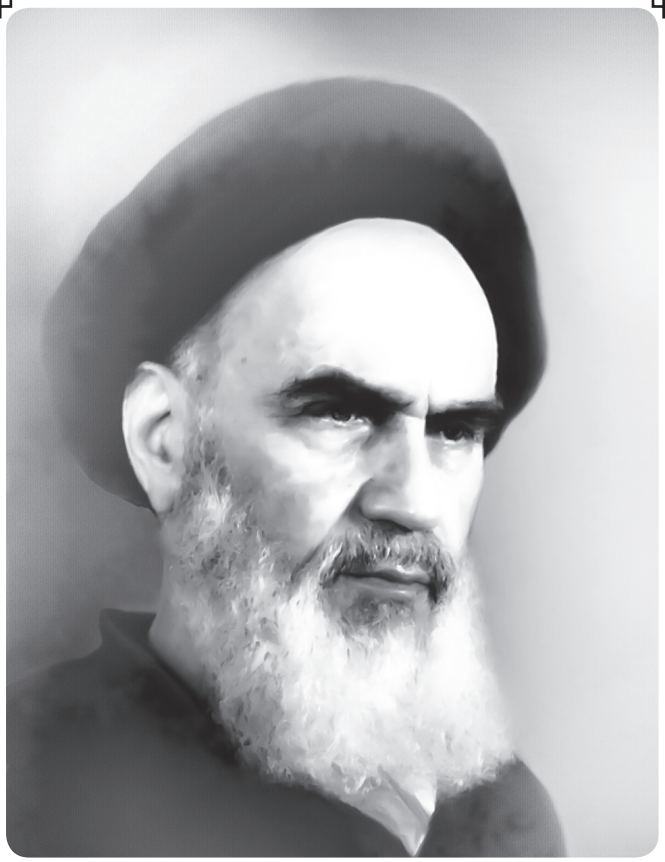

إنَّ معرفـة هؤلاء للإسلام – رغم كونهم مسلمين – تقتصر على البعد المادي للإسلام فقط! . وفيما كان أولئك يدعون إلى الباطـن ويغفلـون عـن الظاهـر والطبيعة، نـرى هؤلاء يدعون إلى الماديّات ويغفلون عن المعنويّات، وكلاهما على خطـأ، فالإسلام غير محدود في تلك المعنويات التي يقولها أولئك، ولا محدّد في المادّيات التي يقول بها هؤلاء.